مفهوم الاتساق بين نظرية النظم ولسانيات النص

The definition of consistency between the theory of system and linguistic text

الأستاذة: فائزة سيدي موسى

قسم اللّغة العربية وآدابها

كلية الآداب واللّغات– جامعة البليدة 2

ملخص:

يعالج هذا المقال أبرز ما توصل إليه العلماء العرب في قواعد تشكيل النص ، وقد خصصنا هذا العمل للحديث عن الجهود النصية عند عبد القاهر الجرجاني من خلال نظرية النظم ، وذلك من خلال أدوات الإتساق التي تطرق إليها كالفصل و الوصل و التعريف والتنكير و الربط بالموصول و الحذف و غيرها و هي الأدوات التي تم التوصل إليها في اللسانيات النص، لذا سنحاول من خلال هذا المقال بحث العلاقة التي تربط بين مفهوم الاتساق و أدواته في نظرية النظم و لسانيات النص.

Summary:

This article addresses the most prominent findings of the Arab scientists in the rules of the formation of the text, we have been dedicated this work to talk about the scripts efforts when Abdul omnipotent Jerjani through systems theory, and through consistency Tools touched upon such as separation and connectivity and definition, and saying that the indefinite and connectivity Balmousol and deletions, and others, and are the tools that have been reached in linguistics text, so we will try through this article discuss the relationship between the concept of consistency and tools in systems theory and text linguistics.

الكلمات المفتاحية:

نظرية النظم = Systemstheory ، أدوات الاتساق = Consistency Tools،
لسانيات النص = Textlinguistics

مقدمة :

يعتبر الاتساق من أهم المفاهيم التي تتضمنها لسانيات النص إذ يمكننا من خلاله التفريق بين النص و اللا نص من خلال الأدوات التي تحقق الترابط بين أجزاء النص حتى يشكل لنا كلا متحدا لتحقق القصدية التي يحملها منشئ النص و المقبولية لدى المتلقي ، و هي الشروط التي تتضافر مع أدوات الاتساق حتى تتحقق النصية ، وقد أولى علماء النص أهمية كبيرة لأدوات الاتساق خاصة هاليداي و رقية حسن في كتابهما : cohesion in english" بحيث حددا فيه مفهوم كل من النص و الاتساق و أهم الأدوات التي تحقق الاتساق على مستوى النص ، بالإضافة إلى جهود أخرى في هذا المجال ك: فان دايك و غيره كل حسب إسهاماته في وضع قواعد و أسس علم النص .

والبحث الذي بين أيدينا يحاول توثيق العلاقة بين مفهوم الاتساق و أدواته عند الغرب و العرب من خلال رصد مظاهره في نظرية النظم عند الجرجاني ، و ذلك بالإجابة على الإشكالية الآتية : ما هي أوجه التداخل بين علماء النص و الجرجاني في مفهوم الاتساق وأدواته ؟

و للإجابة عن هذه الإشكالية سنقف عند جملة من المفاهيم كمفهوم النص عند علماء النص و كذا الاتساق و أدواته التي تسهم في تحقيق النصية ، ثم نقوم بإجراء مقارنة بينها و بين مظاهر الاتساق في التراث اللساني العربي ضمن نظرية النظم ومفهوم الاتساق في لسانيات النص .

تمهيد:

كانت الدراسات اللسانية مقتصرة على الجملة باعتبارها أكبر وحدة يصل إليها التحليل اللساني ، إذ كانت تدرس بنويا معزولة عن السياق ، فظهر بذلك اتجاه جديد لدراسة الظواهر التي تتعدى حدود الجملة فيما يعرف بلسانيات النص و هو فرع يهتم بتحديد القواعد التي تبنى عليها النصوص .

و تعود البدايات الأولى لهذا العلم إلى المقال الذي نشره "harris" سنة 1952 بحيث حاول أنيجد توصيفا بنويا للنصوص،فبين فيه أن: " التعبير اللغوي المستقل بالإفادة أو الجملة هو مابه اللساني ، أما النص فليس إلا مظهرا من مظاهر الاستعمال اللغوي غير قابل للتحديد " (1).

فهاريس تجاوز حدود الجملة إلى النص محاولا بذلك وضع توصيف شامل للنصوص ، فهو بهذا المنهج تجاوز التقليد الذي أرساه بلومفيد في دراسة الجمل بنويا (الوصف و التصنيف و التوزيع) لينتقل إلى دراستها في سياقها النصي .

وهذا التحول من الجملة إلى النص عرف تسميات عديدة منها :لسانيات النص textlinguistic و نحو النص textgramar، بينما استعمل هارفج مصطلح textlogie، في حين أن درسلر استخدم مصطلح علم دلالة النص أما سوينسكي فيشيد بمصطلح نحو النص و تداولية النص و علم اللغة النصي و نظرية النص .(2)

و قد حاول علماء النص من خلال هذا المنهج تقديم الآليات التي تبنى عليها النصوص لتحقق النصية و التمييز بين النص و اللا نص، وذلك من خلال توفر أدوات الاتساق التي تشكل أهم شرط في الحكم على نص ما بأنه متسق ، لأن تحقق الانسجام في نص ما مرتبط بمدى اتساقه ، فالاتساق يظهر على المستوى السطحي للنص في حين أن الانسجام خفي مضمن في البنية العميقة للنص .

1- مفهوم النص:

قبل التطرق إلى مفهوم الاتساق و أدواته عند علماء النص سنعرج على مفهوم النص ،لأنه لم يشهد تعريفا موحدا و إنما قدمت له عدة تعاريف بحسب تعدد الإتجاهات التي درسته.

أ- النص في اللغة :

و النص في اللغة يعني الرفعة و الظهور يقال :" النص رفعك الشيء نص الحديث ينصه نصا : رفعه و كل ما أظهر فقد نص ، يقال : نص الحديث إلى فلان أي رفعه و كذلك نصصته إليه، ونص المتاع نصا جعله بعضه على بعض ، و أصل النص أقصى الشيء و غايته، و نص الرجل نصا إذا سأله عن شيء حتى يستقصي ما عنده ، و نص كل شيء منتهاه .

الأزهري :" النص أصله منتهى الأشياء و مبلغ أقصاها ، و في حديث هرقل : ينصه أي يستخرج أسهم و يظهره و منه قول الفقهاء نص القرآن و نص السنة أي ما دل ظاهر لفظها عليه من الاحكام و انتص الشيء و انتصب إذا استوى و استقام."(3)

فهذه المعاني اللغوية تفيد أن النص معناه الرفع والإظهار إما في جانبه المنطوق كالحديث أو في جانبه المكتوب المتمثل في الكتاب و السنة .

ب–النص اصطلاحا:

تعددت التعاريف المتعلقة بالنص وذلك بحسب الاتجاهات المختلفة التي اهتمت بمفهوم النص، فمنها من نظر إلى النص في جانبه الخطي مثل هارفج الذي يرى بأن النص:" ترابط مستمر للاستبدالات السنتجمية التي تظهر الترابط النحوي في النص."4

أما كريستيفا فقد ربطت النص بالموقف الاتصالي حيث ترى بأنه:" جهاز غير لساني يعيد توزيع نظام اللسان بالربط بين كلام تواصلي يهدف إلى الإخبار المباشر بين أنماط عديدة من الملفوظات السابقة عليه أو المتزامنة معه، فالنص إذن إنتاجية."5

فالنص باعتباره حدثا تواصليا يكون في حالة إنتاجية متجددة حسب المواقف الاتصالية التي تستدعيه وهناك من أعطى مفهوما للنص في جانبه الكلي مقارنة بالجملة، إذ إن مفهوم النص لايستوي مع مفهوم الجملة على مخطط واحد (أو مع مفهوم القول أوالتركيب...إلخ) فالبنى النصية إن كانت أنجزها كينونات لسانية إلا أنها تكون كينونات تواصلية."6

فمفهوم النص لا يستوي مع الجملة، لأن البنية النصية تخضع للموقف الاتصالي، في حين أن الجملة تخضع للجانب اللساني لأنها تدرس معزولة عن سياقها التواصلي.

أما برينكر فقد جمع بين الجانبين اللغوي والاتصالي في تحديد النص فيقول:" يسم المصطلح " نص" تتابعا محدودا من علامات لغوية متماسكة في ذاتها وتشير بوصفها كلا إلى وظيفة تواصلية مدركة."7

وهكذا نجد التعريفات المتعلقة بالنص تتعدد بتعدد الاتجاهات التي تدرسها، لذا فإن صلاح فضل يرى بعدم الاقتصار على الجانب المنطوق أو المكتوب أو الاتصال في تحديد مفهوم النص، لأن النص يتحدد بتضافر الجوانب الثلاثة لبناء نص مكتمل تتحقق فيه النصية" فالنص في نظره ليس مجرد لغة وليس مجرد اتصال وليس مجرد كتابة وليس تتابعا لجمل مترابطة إنه يتكون من كل ذلك وأكثر."8

وعليه فإنه يمكننا القول أن تحقق النصية يرتبط بالشروط السبعة التي حددها دي بوجراند وهي: "الاتساق والانسجام والقصد والقبول والإعلام والمقامية والتناص."9 وهي المعايير التي يستطيع أن نميز بها بين النص واللانص، والاتساق يعد من أهم المعايير التي تتمظهر من خلالها النصية بواسطة الأدوات التي تحقق الترابط بين أجزاء النص.

2- مفهوم الاتساق وأدواته عند علماء النص:

أ– مفهوم الاتساق:

يدل مفهوم الاتساق على الروابط التي تجمع بين أجزاء النص للوصول إلى القصدية التي يبتغيها منتج النص، فهو على هذا الأساس يجمع بين الجانبين الدلالي والشكلي، إذ يرى فان دايك أن:" الاتساق عبارة عن خاصية سيمانطقية للخطاب قائمة على تأويل كل جملة مفردة متعلقة بتأويل جملة أخرى، أما مصطلح الترابط فهو يشمل في الظاهر جانبا واحدا من اتساق الخطاب."10

فالاتساق- حسب فان دايك- يرتبط بالجانب الدلالي بالدرجة الأولى من خلال العلاقة الدلالية التي تضفيها كل جملة إلى الجملة التي تليها، ثم يشير إلى الجانب الشكلي الذي يظهر على مستوى البنية السطحية للنص ومن ثم فالاتساق عند فان دايك كلي يجمع بين الترابط الشكلي والمفهومي حتى يتحقق اتساق فحوى الخطاب.

ويعرف الاتساق على أنه:" العلاقات أوالأدوات الشكلية والدلالية التي تسهم في الربط بين عناصر النص الداخلية وبين النص والبيئة المحيطة من ناحية أخرى ومن هذه الأدوات المرجعية."11

وهذا التعريف فيه إشارة إلى الأدوات التي تحقق الاتساق على المستوى الداخلي للنص من خلال عناصر الإحالة الداخلية، كما يشير إلى عناصر الإحالة الخارجية التي ترتبط بالمقام الذي أنتج فيه النص.

أما هاليداي ورقية حسن فيريان أن الاتساق :" مفهوم دلالي إنه يحيل إلى العلاقات المعنوية القائمة داخل النص والتي تحدده كنص."12

فالاتساق عند هاليداي ورقية حسن مرتبط بالمعنى من خلال العلاقات المعنوية التي تربط بين أجزاء النص وتميزه عن اللانص، وهذا التمييز يتحقق بواسطة جملة من الأدوات.

ب–أدوات الاتساق عند علماء النص:

لقد حدد علماء النص جملة من الأدوات للربط بين أجزاء النص وتعمل على اتساقه حتى تتحقق النصية وتتمظهر الأدوات فيما يلي:

1–الإحالة:" تطلق تسمية العناصر الإحاليةanaphra() على قسم من الألفاظ لا تملك دلالة مستقلة بل تعود على عنصر أو عناصر أخرى مذكورة في أجزاء أخرى من الخطاب"13

فهذه العناصر الإحالية لاتتسم بالاستقلالية وإنما ترتبط بالعناصر التي تحيل إليها، وذلك يكون بالضمائر أو أسماء الإشارة أو الأسماء الموصولة، ويشترط التطابق الدلالي بين العنصر المحيل والعنصر المحال إليه حتى يتحقق الاتساق وهذا ما أشار إليه محمد خطابي في قوله:" الإحالة علاقة دلالية ومن ثم لاتخضع لقيود نحوية إلا أنها تخضع لقيد دلالي وهو وجوب تطابق الخصائص الدلالية بين العنصر المحيل والعنصر المحال إليه."14

وتنقسم هذه الإحالة إلى قسمين:

إحالة مقامية situationalexphora ونصية textualenphora وتنقسم الإحالة النصية بدورها إلى قسمين : إحالة قبلية (إلى سابق) to following text cataphora وبعدية (إلى لاحق)15".to preceding text anaphora

فالإحالة الداخلية تحقق الاتساق على مستوى البنية اللغوية للنص فتكون ظاهرة على المستوى السطحي، أما الإحالة الخارجية فتتعلق بسياق المقام بحيث تعمل على الربط بين الجانب اللغوي للنص والسياق الذي أنتج فيه.

2–الاستبدال: فهو صورة من صور الاتساق يكون بتعويض عنصر بآخر سواء أكان على المستىوى النحوي أم المعجمي، يقول: محمد خطابي عنه بأنه:" عملية تتم داخل النص إنه تعويض عنصر في النص بعنصر آخر شأنه في ذلك شأن الإحالة يختلف عنها في كونه علاقة تتم في المستوى النحوي– المعجمي بين كلمات أو عبارات."16

فالاستبدال يحقق الاتساق على مستوى النص من خلال تعويض عنصر بآخر حتى يتجنب منتج النص التكرار في النص، والاستبدال يتخذ ثلاثة أشكال، فهو إما أن يكون اسميا أو فعليا أوقوليا.

3–الحذف: ويعد وسيلة مهمة من وسائل الاتساق وهو قريب من الاستبدال إلا أنه لا يترك أثرا على مستوى البنية السطحية وقد حدد بأنه:" كعلاقة اتساق لا يختلف عن الاستبدال إلا يكون الأول استبدالا بالصفر."17

4–الربط: وهوتحديد للعلاقة التي يترابط بها اللاحق مع السابق بشكل منتظم."18

فالربط يعمل على تثبيت العلاقات بين المساحات النصية ويتحقق بجملة من أدوات العطف كالواو وأو، ثم، بل، لأن... وغيرها، وذلك لتحقيق معاني العطف المختلفة فمثلا: مطلق الجمع ويتحقق بحرف العطف الواو، والتخيير بواسطة حرف العطف أو،

والاستدراك بلكن، والتفريع بواسطة لأن... وهذه الروابط تحقق الاتساق على مستوى البنية النصية من خلال سد الفراغات النصية إذا حققت المعاني المنوطة بها.

3- التعريف:" وهو وضع العناصر الداخلة في عالم النص حيث تكون وظيفة كل من هذه العناصر لا تحتمل الجدل في سياق الموقف ومعنى أن تحدد الوضع باسم علم أوصفة معرفة."19

فوظيفة التعريف تتمثل في التحديد أي أداة التعريف إلى مذكور سابقا، فيتحقق الاتساق من خلال ربط أداة التعريف بالاسم المذكور سابقا، فهي بهذ تعمل عمل الضمير في الإحالة إلى مذكور سابقا.

وهذه الأدوات المذكورة آنفا تشكل لنا الاتساق على المستوى النحوي، أما المستوى المعجمي فإنه يتمظهر من خلال التكرار والتضام عند علماء النص.

فالتكرار "يتطلب إعادة عنصر معجمي أو ورود مرادف له أو شبه مرادف أو عنصرا مطلقا أو اسما عاما."20، ويكون التكرار إما لفظيا أي بإعادة العنصر نفسه أو معنويا من خلال تكرار المعنى لا اللفظ.

أما التضام فيكون بارتباط زوج من الكلمات بعلاقة ما، وهو ما يعرف بالطباق.

فهذه الأدوات تمثل لنا ما تم التوصل إليه في الدراسات النصية الحديثة في وضع أهم القواعد لبناء نص متسق ومنسجم حتى يتم التمييز بين النص واللانص وهذه الأدوات وجدت لها إرهاصات في التراث اللساني العربي خاصة في نظرية النظم وهو ما سنوضحه من خلال دراسة مظاهر الاتساق عند الجرجاني ومقارنتها مع المفاهيم الموجودة في لسانيات النص.

2-مظاهر الاتساق في نظرية النظم:

تمحورت نظرية النظم عند الجرجاني حول النص القرآني فدرس جميع الجوانب النحوية والبلاغية لإثبات فكرة الإعجاز باعتبار أن النص القرآني معجز بنظمه، فقدم بذلك تحليلات لدراسة الترابط بين الآيات تجاوز بها حدود الجملة، وهذه المفاهيم تتقاطع في كثير من جوانبها مع أدوات الاتساق في لسانيات النص.

وقد تم تناول مفهوم الاتساق عند الجرجاني واللغويين قبله فيما يعرف بالتأليف والسبك والنظم، فالقرطاجني تطرق إلى مفهوم الاتساق عند حديثه عن تناسق العبارات بقوله:" ومن ذلك حسن التأليف وتلاؤمه والتلاؤم يقع في الكلام على أنحاء منها: أن تكون حروف الكلام بالنظر إلى ائتلاف بعض حروف الكلمة مع بعضها وائتلاف جملة كلمة مع جملة كلمة تلاصقها..."21

فالقرطاجني استعمل مصطلحات لتوضيح التناسق بين العبارات كالتأليف والائتلاف والتلاؤم وهي اصطلاحات تدل على تحقق الاتساق في بنية القصيدة الشعرية.

وقد طور الجاحظ هذا المفهوم وعبر عنه بمصطلح السبك للحكم على جودة الشعر من عدمها فيقول:" وأجود الشعر ما رأيته متلاحم الأجزاء سهل المخارج فتعلم بذلك أنه قد أفرغ إفراغا واحدا وسبك سبكا واحدا فهو يجري على اللسان كما يجري على الدهان."22

فمصطلح السبك عند الجاحظ يدل على الاتساق بمفهومه الدقيق عند علماء النص لأنه نظر إلى القصيدة على أنها كل موحد متلاحم الأجزاء يتحقق ذلك بتوفر القصيدة على أدوات السبك المختلفة التي تعمل على الربط بين أ جزاء القصيدة (النص)، وهذا السبك الجيد يجعل النص كاملا لتحقيق المعنى الذي أنتج له ويسهل تداوله على اللسان.

أما الجرجاني فقد قدم تحليلات للنص القرآني والنصوص الشعرية تتفق في كثير من جوانبها مع الدرس النصي الحديث، فربط النص بالسياق الذي يعد من المعايير التي تتحقق بها النصية فيقول:" واعلم أن ليست المزية واجبة لها في أنفسها ومن حيث هي

على الإطلاق ولكن تعرض سبب من المعاني والأغراض التي يوضع لها الكلام ثم بحسب موقع بعضها من بعض استعمال بعضها من بعض، فالتنكير لايروق في كل مقام والتقديم لا يروق في كل مقام وليس من فضل أو مزية لشيء من ذلك إلا بحسب الموضع وبحسب المعنى."23

فالجرجاني يقصد التراكيب التي تترابط فيما بينها من خلال وسائل الاتساق التي تستعمل في النص بحسب المعنى والسياق الخارجي الذي يحكم كلا من المتكلم والمتلقي، فهو يربط التنكير والتقديم اللذين يبتغيهما الناظم بالمعنى والسياق لأن توظيفهما في تحقيق معنى النظم لا يكون عبثا وإنما لتبليغ رسالة معينة للمتلقي ضمن سياق معين يقتضي هذا التوظيف.

وقد أشار الجرجاني إلى مفهوم الاتساق عند حديثه عن معنى النظم فيقول:" وأما نظم الكلم فليس الأمر فيه كذلك لأنك تقتفي في نظمها آثار المعاني وترتيبها على حسب ترتب المعاني في النفس، فهو إذن نظم يعتبر فيه حال المنظوم بعضه مع بعض وليس هو النظم الذي معناه ضم الشيء إلى الشيء كيفما جاء واتفق، وكذلك كان عندهم نظيرا للنسج والتأليف والصياغة والبناء والوشي والتحبير وما أشبه ذلك مما يوجب اعتبار الأجزاء بعضها مع بعض، حتى تكون لوضع كل حيث وضع علة تقتضي كونه هناك وحتى لو وضع في مكان غيره لم يصلح."24

وقد بين الجرجاني العناصر التي تتحد من خلالها أجزاء النص سواء أكان ذلك على المستوى السطحي المتمثل في الأدوات الظاهرة على مستوى البنية السطحية أم على المستوى العميق المتمثل في المعاني الخفية التي تعتمد أساسا على البناء الشكلي السليم حتى تتحقق سلامة المعنى فينتج لنا نص متسق ومنسجم.

وعليه فإن مفهوم الاتساق عن الجرجاني يتداخل مع الدراسات النصية الحديثة، ويظهر ذلك من خلال الأدوات التي يدق فيها النظم والتي تتفق مع أدوات الاتساق في لسانيات النص، فقد تطرق إلى هذه الأدوات "بالنظر إلى الجمل التي تسرد ليعرف موضع الفصل منها من موضع الوصل، ثم يعرف ما حقه الوصل موضع الواو من موضع الفاء وموضع الفاء من موضع ثم وموضع أو من موضع أم، وموضع لكن من موضع بل ويتصرف في التعريف والتنكير والتقديم والتأخير في الكلام كله وفي الحذف والتكرار والإضمار والإظهار، فيضع كلا من ذلك مكانه ويستعمله على الصحة وعلى ما ينبغي له."25

وهذه الوجوه في الربط بين الجمل تدل على أن الجمل لاترسل عشوائيا وإنما تخضع لجملة من الروابط حتى يتكون لنا نص متناسق ومترابط وإذا تأملنا نص الجرجاني لاحظنا أن هذه الأدوات قد عني بها علماء النص، وهذا ما سنوضحه من خلال التحليلات التي قدمها الجرجاني.

1- العطف: لقد بين الجرجاني أهمية حروف العطف في الربط بين الجمل وذلك بتحديد الفروق الدلالية بين حروف العطف" فالواو تفيد الإشراك في الحكم، والفاء تفيد الترتيب من تراخ وثم تفيد الترتيب بتراخ وأو تفيد التخيير ولكن وبل وكل منهما تفيد الاستدراك والإضراب."26

ولتوضيح هذه الفكرة قدم الجرجاني مثالا بين من خلاله عدم استقامة الكلام، لأن العطف لايصلح في جميع الأحوال فيقول:

" لا والذي هو عالم أن النوى صبر وأن أبا الحسين كريم

وذلك لأنه لامناسبة بين كرم أبي الحسين ومرارة النوى ولا تعلق لأحدهما بالآخر وليس يقتضي الحديث بهذا الحديث بذاك."27

فاعتراض الجرجاني على العطف في هذا المقام كان لعدم تطابق المعنيين المعطوفين، مما أدى إلى خلل في الترابط بين الجملتين، وقد بين دقة العطف من خلال عطف جملة على أخرى تفصل بينهما جملة أو اثنتان فقال معلقا على قول المتنبي:

" تولوا بغتة فكأن بينا تهيبي ففاجأني اغتيالا

فكان مسير عيسهم ذميلا وسير الدمع إثرهم اهمالا

قوله: فكان "مسير عيسهم"معطوف على تولوا بغتة دون ما يليه من قوله:" ففاجأني" لأنا إن عطفناه على هذا الذي يليه أفسدنا المعنى لذا كان العطف على قوله" تولوا بغتة" ولهذا السبب كانت مع الأولى كالشيء الواحد وكانت منزلتها منها منزلة المفعول والظرف وسائر ما يجيء بعد تمام الجملة من معمولات الفعل مما لايمكن إفراده عن الجملة وأن يعتد كلاما على حدته."28

وهذا الفصل بين المعطوفين يدل على الترابط بين الجملتين المفصولتين لمعنى بقي قائما بين المعطوف والمعطوف عليه لأن تمام معنى الجملة الأولى مرتبط بالجملة الثانية فهي بمثابة المعمول للفعل الوارد في الجملة الأولى.

والجرجاني يقر بأن العطف لا يصلح في كل سياق، لأن بعض المقامات تفرض على منتج النص ترك العطف،وهذا الفصل لا يؤثر على ترابط أجزاء، وإنما يزيد في ترابط أجزائه وقد مثل بقول الشاعر:

"زعم العواذل أنني في غمرة صدقوا ولكن غمرتي لا تنجلي

حكى عن العواذل أنهم قالوا"هو في غمرة" وكان ذلك مما يحرك السامع لأن يسأله فيقول:"فما قولك في ذلك، وما جوابك عنه"أخرج الكلام مخرجه إذا كان ذلك قد قيل وصار كأنه قال:"أقول صدقوا أنا كما قالوا ولكن لا مطمع لهم في فلاحي، ولو قال:"زعم العواذل أنني في غمرة وصدقوا لكان يكون لم يضع في نفسه أنه مسؤول، وأن كلامه مجيب."29

فالرابط لا يظهر على مستوى البنية السطحية ،لأنه يحيل إلى ربط معنوي استقاه الجرجاني من السياق الخارجي ، فالفصل الموظف في البيت الشعري زاد من تلاحم أجزاء النص لأن المعنى لا يقتضي توظيف العطف وإنما يستوجب تركه، وهذا يبين لنا ارتباط معنى النص بالسياق الخارجي الذي أنشيء فيه.

2-الإحالة: قدم الجرجاني تحليلات لأبيات شعرية وظف فيها عناصر الإحالة التي عني بها علماء النص كالضمائر والإشارة ،وذلك عند تمييزه بين النظم الجيد والنظم الفاسد، فالإحالة بالضمير عند الجرجاني تضفي على النظم استحسانا أو هجنة فمثل لحسن استعمال الضمير ببيت البحتري:

"بلونا ضرائب من قد ترى فما غن رأينا لفتح ضريبا

هو المرء أبدت الحادثا ت عزما وشيكا ورأيا صليبا

فإذا رأيتها قد راقتك وكثرت عندك وجدت لها اهتزازا في نفسك فعد وانظر في السبب واستقص في النظر فإنك تعلم ضرورة أن ليس إلا أنه قدم وأخر وعرف ونكر وحذف وأضمر...أفلا ترى أن أول شيء يروقك منها قوله:"هو المرء أبدت اه الحادثات."30

كما أشار إلى وظيفة اسم الإشارة في تحسين النظم عند تعليقه على قول الشاعر:

"وإن قتل الهوى رجلا فإني ذلك الرجل

أنظر إلى الإشارة والتعريف.31

فقد رد الجرجاني دقة النظم وحسن التعبير إلى الإحالة بالضمير والإشارة، وهي من وسائل الإحالة التي ركز عليها علماء النص، فالجرجاني لم يخصص للإحالة بالضمير والإشارة بابا مفردا وإنما تطرق إليها عند تمييزه بين النظم الجيد والنظم الفاسد، وهو ما يتفق فيه مع علماء النص في استخدام بدائل الإحالة للتمييز بين النص واللانص.

3-الربط بالموصول: وهو أحد عناصر الإحالة عند علماء النص، إلا أن الجرجاني خصص له بابا مفردا في دلائل الإعجاز لأهميته في تحقيق الترابط بين الجمل، فقد عده كالإحالة بالضمير تارة لأن صلة الموصول يجب أن تتضمن عائدا على الجملة السابقة، وعده ضربا من التعريف تارة أخرى لأنه يحدد الاسم المذكور قبله ،فالاسم الموصول إما أن يربط بين جملتين معلومتين من قبل السامع فيتحقق

معنى الخبر(الإفادة)، وإما أن يكون الخبر المتضمن"الذي" مجهولا من قبل السامع كقولنا : هذا الذي كان عندك بالأمس32 لشخص يجهل أن شخصا عنده، فلا يمكننا القول بأنه خبر لفقده شرط الإفادة، فالجرجاني يبين لنا دقة استعمال الموصول في الربط بين الجمل، بحيث يستقيم المعنى في موضع دون آخر، وذلك بحسب السياق الذي يحيط بالمتكلم والمخاطب، وهو ما يفرض إمكانية الربط بالموصول من عدمه.

4-الربط بالتعريف:تتعدى وظيفة أداة التعريف نقل النكرة إلى معرفة، لأنها تعمل على الربط بين الجمل مثلها مثل الضمير، فتحيل المتلقي إلى شيىء سبق ذكره وقد أرجع الجرجاني الفضل والمزية إلى الجمع بين التعريف والإشارة في قول ابن البواب:

وإن قتل الهوى رجلا فإني ذلك الرجل33

لكن رغم تأكيد الجرجاني على أهمية الربط بالتعريف، إلا أنه يرى بأنه لا يصلح في كل مقام، لأن هناك بعض المواقف تقتضي التنكير لا التعريف، وقد بين ذلك من خلال المثال الذي أورده من قول الشاعر "فلو إذ نبا دهر"،"وأنكر صاحب"34 فهو يرى أن اعتماد الشاعر على التنكير حقق الترابط بين الجمل وأدى إلى جودة النظم، وهنا تتضح لنا وظيفة أداة التعريف في تحديد اسم مذكور سابقا، في حين يدل التنكير على العموم أي لا يقوم بتحديد عنصر معين في النص.

5-التقديم والتأخير:ويعد من عوامل الربط عند الجرجاني،لأنه يقوم على دقة المعنى فتقديم أي عنصر من عناصر الجملة يخضع إلى ضوابط كالمعنى والسياق، مما يجعل النص أكثر ارتباطا واتساقا ليؤدي المعنى الذي وضع له بدقة، لأن هذا المعنى قد لايتحقق إذا اعتمد الترتيب المتعارف عليه لعناصر الجملة، وقد بين أن تقديم الظرف على عامله يضفي قوة واتساقا على النص من خلال العلاقة التي يقيمها المتلقي بين الظرف المقدم والعامل المؤخر، وهذا ما يجعل المتلقي يتشوق لمعرفة بقية الكلام ويتبين لنا ذلك من تعليقه على بيت إبراهيم بن العباس:

"فلو إذ نبا دهر وأكر صاحب وسلط أعداء وغاب نصير

تكون عن الأهواز داري بنجوة ولكن مقادير جرت وأمور

فإنك ترى ما ترى من الرونق والطلاوة ومن الحسن والحلاوة، ثم تتفقد السبب في ذلك فتجده إنما كان من أجل تقديمه الظرف الذي هو"إذ نبا" على عامله الذي هو "تكون" وأن لم يقل :فلو تكون عن الأهواز داري بنجوة إذ نبا دهر"35

وعليه فإن مرجع الحسن والجودة في النص الشعري للتقديم والتأخير الذي يعد استبدالا في الموضع، وهو ما يغيب في الدراسات النصية الحديثة باعتبار أن الجملة في اللغات الأجنبية تتميز بالثبات عكس الجملة العربية التي تمنح الحرية للمتكلم في ترتيب عناصر الجملة التي يمتد أثرها إلى النص من خلال العلاقات النصية بين جملة وأخرى لكن يشترط في التقديم والتأخير أن يخضع لضوابط السياق التي توجب التقديم حتى يستقيم النص ويؤدي المعنى المنوط به.

6-الحذف: يرى الجرجاني أن الحذف يعمل على الربط بين أجزاء النص، لأن بعض المواقف تقتضي الحذف بدل الإفصاح، فهو يرى بأن الحذف:"باب دقيق المسلك لطيف المأخذ، عجيب الأمر شبيه بالسحر فإنك به ترك الذكر أفصح من الذكر والصمت أزيد للإفادة."36

وقد بين الجرجاني دقة الحذف في تحقيق التماسك بين أجزاء النص من خلال حذف المبتدأ عند القطع والاستئناف ، ومواضع حذف المفعول به من خلال نماذج النص القرآني، والحذف لا يظهر على مستوى البنية السطحية (مدرج الكلام) إلا أن موضعه موجود يمكن معرفته بعملية عقلية تتمثل في تقدير العنصر المحذوف، وهذا فيه اتفاق مع علماء النص الذين يعتبرونه استبدالا بالصفر.

7-الشرط والجزاء: يتحقق اتساق النصوص في الشرط والجزاء من خلال الروابط التي تربط جملة الشرط بالجواب، وهوما يدخل ضمن الأدوات التي يتحقق بها الاتساق عند علماء النص، ويظهر هذا الترابط من خلال الفروق الدلالية التي وضحها الجرجاني عند حديثه عن معنى الشرط بقوله:"وفي الشرط والجزاء إلى الوجوه التي تراها في قولك:"إن تخرج أخرج "و"إن خرجتَ خرجتُ"و"إن تخرج فأنا خارج"و"أنا خارج إن خرجتَ"و"أنا إن خرجت خارج"37

فوجوه الشرط والجزاء التي أوردها الجرجاني تخضع إلى سياق الموقف والغرض الذي يبتغيه المتكلم من إيراد هذه الوجوه، وارتباط الشرط بالجزاء يتداخل مع الرابط السببي في لسانيات النص من خلال توظيف الضمير لتأكيد الفعل من قبل المتكلم، وهذا ما يفرض تغير دلالة صيغة الماضي إلى المستقبل لا رتباطها بجواب الشرط الذي يحدث في المستقبل، كما تشكل الفاء الواقعة في جواب الشرط نوعا من أنواع الربط مما يزيد في تحقيق التماسك في النصوص.

8-الحال: خصص الجرجاني بابا مفردا للحال بين من خلاله الفروق والوجوه التي تكون عليها الحال في الكلام، فيقول موضحا هذه الفروق:"وفي الحال إلى الوجوه التي تراها في قولك:"جاءني زيد مسرعا"و"جاءني زيد يسرع" و"جاءني وهو مسرع" أو يسرع و"جاءني قد أسرع وجاءني وقد أسرع".38

فتحقق الاتساقفي النص من خلال توظيف الحال يتمثل في المعاني المتعلقة بالوجوه المختلفة التي بينها الجرجاني، فمثلا مجيء الحال مفردة على الثبوت، في حين أن ورودها جملة فعلية يدل على تجدد الحدث، وهذه الجملة تتضمن رابطا يعود على صاحب الحال، وهذا الرابط إما أن يكون ضميرا أو واو الحال وهو ما يشكل أداة من أدوات الاتساق عند علماء النص، مما يؤكد لنا وظيفة الحال في تحقيق التماسك بين أجزاء النص من خلال الفروق الدلالية التي تميزها بحسب السياقات التي تحكمها.

9-فكرة التعليق(النعت البدل التوكيد): أشار الجرجاني إلى التوابع عند شرحه لمصطلح النظم من خلال فكرة التعليق التي يتحقق بها الترابط بين أجزاء الجملة ويمتد أثرها إلى النص من خلال العلاقات القائمة بين الجمل، وهذه التوابع تتفق مع أدوات الاتساق عند علماء النص، فالنعت يشكل علاقة دلالية مع المنعوت إذ يشترط فيهما التطابق الدلالي خاصة إذا كان النعت جملة، لأن الجملة الواقعة نعتا تتضمن ضميرا عائدا على المنعوت وهو ما يشكل نوعا من أنواع الإحالة عند علماء النص.

أما البدل فيشتمل على علاقة قائمة بين البدل والمبدل منه وهو ما يحقق اتساقا على مستوى الجملة ويمتد أثره إلى النص من خلال الروابط المختلفة، ويتداخل البدل مع مصطلح الاستبدال عند علماء النص،"بحيث قسم الأول إلى بدل الكل من كل وبدل الاشتمال والبدل المباين، أما عند علماء النص فيقسم إلى استبدال اسمي وفعلي وقولي."39

ويعتبر التوكيد أيضا من أدوات الاتساق لأن التوكيد المعنوي يتضمن ضميرا يعود على المؤكد، أما التوكيد اللفظي فيعد نوعا من أنواع التكرار، وبهذا يتداخل التوكيد مع أدوات الاتساق عند علماء النص في التكرار من جهة والضمير العائد من جهة أخرى، وقد بين الجرجاني دور هذه التوابع في تحقيق معنى النظم فيقول:"ليس النظم سوى تعليق الكلم بعضها ببعض وجعل بعضها بسبب من بعض ...فالاسم يتعلق بالاسم بأن يكون خبرا عنه... أو تابعا له:صفة أو تأكيدا ...أو بدلا..."40

وعليه فإن فكرة التعليق التي تنبني على هذه التوابع تتضمن رابطا معنويا يحدد العلاقة بين التابع والمتبوع أو شكليا من خلال ضمير يعود على شيىء سبق ذكره، وهذا ما يمثل أداة من أدوات الاتساق تتداخل في مضمونها مع ما تم التوصل إليه في لسانيات النص.

10-التكرار: يشكل التكرار أداة من أدوات الاتساق على المستوى المعجمي، وقد أولى له الجرجاني عناية كبيرة ، لأنه يعمل على تحقيق الاتساق من خلال معاني النحو فتتحقق بذلك جودة النظم، والتكرار إما أن يكون جزئيا أو بتكرير لفظ بأكمله أو جملة بأكملها وقد مثل للأول بقول البحتري:

"فكالسيف إن جئته صارخا وكالبحر إن جئته مستثيبا"41

وقدأرجع الجرجاني جودة النظم إلى العطف بالفاء وتكرير الكاف وحذف المبتدأ لأن التقدير هو كالسيف، وقد كرر الكاف في قوله كالسيف-كالبحر كما كرر الشرط وجوابه "إن جئته صارخا" و"إن جئته مستثيبا"، وهنا يتبين لنا نوعان من التكرار تكرار جزء من الكلمة"كا" وتكرار جملة بأكملها (جملة الشرط وجوابه) وهو ما يشكل تكرارا بالمعنى، لأنهما اتفقتا في المعنى واختلفتا في اللفظ.

أما التكرار اللفظي فقد بينه الجرجاني بتعليقه على بيتي جندب بن عمار:

زعم العواذل أن ناقة جندب بجنوب خبت وعريت وأجمت

كذب العواذل لو رأين مناخا بالقادسية قلن: لح ودلت

وقد زاد هذا أمر القطع والاستئناف وتقدير الجواب تأكيد بأن وضع الظاهر موضع المضمر فقال: كذب العواذل و لم يقل كذبن وذلك أنه لما أعاد ذكر العواذل ظاهرا كان ذلك أبين وأقوى لكونه كلاما مستأنفا حيث وضعه وضعا لا يحتاج فيه إلى ماقبله وأتى به مأتى ما ليس قبله كلام."42

فالجرجاني بين أهمية التكرار في تحقيق جودة النظم لأن تكرار كلمة العواذل كان أبين مما لو أضمر ، وهو ما حقق الاتساق على مستوى النص، وعليه فإن التكرار بنوعيه اللفظي والمعنوي يسهم في اتساق النصوص من خلال العلاقات النصية المختلفة فيزيد في تماسك النصوص إذا وظف بشكل يتوافق والدلالة التي يتضمنها النص.

خاتمة:

لقد حاولنا من خلال هذا العمل أن نوضح أوجه التداخل بين لسانيات النص ونظرية النظم حول مفهوم الاتساق وأدواته، وقد اتضح لنا عند عرضنا لأدوات الاتساق عند الجرجاني أنه تجاوز بها حدود الجملة وصولا إلى النص وذلك من خلال تناوله لأدوات الربط بين الجمل والمعاني الخفية التيتحقق الاتساق والانسجام على مستوى النص، كما تناول ظواهر نصية تعمل على تحقيق الاتساق في النص تتفق مع ما تم التوصل إليه في لسانيات النص كالفصل والوصل والتعريف والتنكير والموصول والتكرار وغيرها من الأدوات التي تحقق التماسك على البنية السطحية والعميقة.

كما تناول ظاهرة التقديم والتأخير التي تسهم في الربط بين أ جزاء النص من خلال العلاقة الرابطة بين العنصر المقدم والمؤخر لأن التقديم والتأخير يخضع إلى المعنى والسياق بالدرجة الأولى حتى تتحقق القصدية، بحيث يتوافق التقديم والتأخير مع الخصائص التركيبية للغة العربية، وهذا ما يمنح الحرية للمتكلم في ترتيب عناصر الجملة التي ترتبط مع أجزاء النص ضمن علاقات نصية أخرى حتى يتشكل لنا نصا متسقا ومنسجما، كما يسهم كل من الشرط والجزاء والحال والتوابع في تحقيق الاتساق لأنه يتضمن بدائل تعمل على ربط أجزاء النص، بحيث تتوافق في كثير من جوانبها مع ما تم التوصل إليه في الدراسات النصية الحديثة.

وهذا التداخل بين نظرية النظم ولسانيات النص في تحقيق الاتساق على مستوى النص يشير إلى أن عبد القاهر الجرجاني تجاوز حدود الجملة في تحديده لمفهوم النظم والقواعد التي تحكمه، وذلك عند تمييزه بين النظم الجيد والنظم الفاسد، فتطرق إلى الأدوات التي تحقق الاتساق بالأمثلة التطبيقية من الشعر والقرآن الكريم بغية إثبات فكرة الإعجاز، وهذا يبين لنا أن ما تعرض إليه الجرجاني في دلائل الإعجاز حول قواعد النظم يشكل ظاهرة نصية لأنه يتقاطع في كثير من جوانبه مع قواعد الاتساق في لسانيات النص.

الهوامش:

1. بحيري سعيد حسن، علم اللغة النصي المفاهيم والاتجاهات، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت،ط1، 1997، ص:18.
2. بوقرة نعمان، المصطلحات الأساسية في لسانيات النص وتحليل الخطاب دراسة معجمية، عالم الكتب الحديث للنشر والتوزيع إربد، ط1، 2009،ص: 23.
3. ابن منظور جمال الدين أبو الفضل محمد بن مكرم، لسان العرب تح: نخبة من الأساتذة، دار المعارف القاهرة، دط، دت، مادة نصص.
4. بحيري سعيد حسن، علم اللغة النصي المفاهيم والاتجاهات، ص188.
5. كريستيفا جوليا، علم النص ت: فريد الزاهي، مرا: عبد الجليل ناظم، دار توبقال للنشر الدار البيضاء، المغرب، ط2، 1997، ص: 21.
6. أزوالد ديكرو،جان ماري سشايفر، القاموس الموسوعي الجديد لعلون اللسان، تر:منذر عياشي، المركز الثقافي العربي الدار البيضاء، المغرب، ط2، 2007، ص: 533.
7. كلاوس برينكر، التحليل اللغوي للنص مدخل إلى المفاهيم الأساسية والمناهج، تر: سعيد حسن بحيري، مؤسسة المختار، ط1، 2005، ص:27.
8. عفيفي أحمد، نحو النص اتجاه جديد في الدرس النحوي، مطبعة زهراء الشرق القاهرة، ط1، 2001، ص: 27.
9. دي بوجراند، النص والخطاب والإجراء، تح: تمام حسان،عالم الكتب، القاهرة، 1998، ص: 03 ومابعدها.
10. فان دايك، النص والسياق، تر: عبد القادر قنيني، إفريقيا الشرق المغرب، دط، 200، ص: 137.
11. الفقي صبحي إبراهيم، علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق، دار قباء للنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، 2000، ص: 96.
12. Halliday and hassan, cohesion in english, longman group limited ; London 1976m p4.
13. الزناد الأزهر، نسيج النص بحث فيما يكون به الملفوظ نصا، المركز الثقافي العربي الدار البيضاء، ط1، 1993، ص: 118.
14. خطابي محمد، لسانيات النص مدخل إلى انسجام الخطاب، المركز الثقافي الدار البيضاء، ط1، 1991، ص: 17.
15. Halliday and hassan, cohesion in english, p : 33.
16. خطابي محمد، لسانيات النص، ص: 19.
17. المرجع نفسه، ص: 21.
18. المرجع نفسه، ص: 23.
19. دي بوجراند، النص والخطاب والإجراء، ص: 310.
20. خطابي محمد، لسانيات النص، ص: 24.
21. القرطاجني حازم، منهاج البلغاء وسراج االأدباء تح: محمد الحبيب بن خوجة، دار الغرب الإسلامي بيروت لبنان، دط، 1986،ص: 222.
22. الجاحظعمرو بن بحر، البيان والتبيين، مكتبة الخانجي القاهرة، ط7، 1998، ج1، ص: 67.
23. الجرجاني عبد القاهر، دلائل الإعجاز اعتنى به علي محمد زينو، مؤسسة الرسالة ناشرون بيروت لبنان، ط1، 2005، ص: 08.
24. المصدر نفسه، ص: 54.
25. المصدر نفسه:ص:77.
26. ينظر المصدر نفسه، ص:172.
27. المصدر نفسه، ص:173.
28. المصدر نفسه، ص:186.
29. المصدر نفسه، ص:180.
30. المصدر نفسه،ص: 79.
31. المصدر نفسه، ص:84.

32. ينظر:المصدر نفسه، ص:157.
33. المصدر نفسه، ص:84.
34. ينظر: المصدر نفسه، ص:80.
35. المصدر نفسه،ص:80.
36. المصدر نفسه، ص:120.
37. المصدر نفسه، ص: 77.
38. المصدر نفسه، ص: 77.
39. الفقي صبحي إبراهيم ، علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق، 26/1.
40. الجرجاني عبد القاهر، دلائل الإعجازن ص: 14.
41. المصدر نفسه، ص: 79-80.
42. المصدر نفسه، ص: 180.